

قنبلة "إسرائيل" الاستعمارية الاستيطانية

ديفيد لويد، أيرلندا

إلى رفعت العرعر

"إن أخطر سلاح تشهره الإمبريالية وتستخدمه فعلاً ضدّ العصيان الجمعي [للمستعمرين] هو القنبلة الثقافية."
نغوي واثيونغو، تصفية استعمار العقل

بينما تُنشر هذه المقالة، يكون قد مضى أكثر من اثني عشر شهراً على استشهاد الدكتور رفعت العرعر، أستاذ الأدب الإنجليزي في الجامعة الإسلامية في غزة، الذي قضى في غارة جوية "إسرائيلية" في 6 كانون الأول/ديسمبر 2023، وهي الغارة التي أودت كذلك بحياة شقيقه وشقيقته وأولادهما الأربعة، عندما تمّ تدمير منزلهم في حي الدرج في مدينة غزة. كان العرعر معلماً، وشاعراً، وناشطاً، ومرشداً للعديد من طلبة غزة الذين أصبحوا بدورهم كتاباً وصحفيين وشعراء بفضل دعمه وتشجيعه. كان العرعر محرر مجموعة القصص القصيرة **غزة تقاوم بالكتابة: قصص قصيرة من كتاب شباب في غزة، فلسطين** التي نُشرت في العام 2014، كما كان من المؤسسين لمشروع **"نحن لسنا أرقاماً"**، الذي أطلق في أعقاب عدوان "إسرائيل" في العام 2014، بهدف دعم الكتاب الشباب في غزة المحاصرة ورعايتهم وتمكينهم من رواية قصصهم للعالم. كان العرعر أستاذاً محبوباً يدرّس شكسبير والأدب العالمي، وحاصلاً على درجة الدكتوراه في أعمال الشاعر جون دون John Donne، وقد كان تأثيره على المقاومة الفلسطينية اللاعنافية بالغ العمق [ونتاجه] لا يُحصى. يبدو من شبه المؤكّد أن قتله كان في حقيقة الأمر اغتيالاً مُخطّطاً نفّذته "إسرائيل" بحق واحد من أكثر النشطاء الثقافيين تأثيراً في غزة، إذ إن الغارة استهدفت فقط الطابق الثاني من المبنى، وهو الطابق الذي كان يقيم فيه مع من استشهدوا معه، في حين أصبحت سياسة "إسرائيل" في التدمير الكامل والعشوائي لمنازل الغزيين نهجاً مألوفاً.¹ وقد سبقت جريمة اغتياله تهديدات بعث بها عملاء "إسرائيل"، لم تكن تحذيرية بقدر ما كانت تهدف إلى التهيب، في الأيام التي سبقت اغتياله. إن هذه الإعدامات خارج إطار القانون بحق من يتحدّون المشروع الاستعماري الاستيطاني "الإسرائيلي"، حتى عندما تكون مقاومتهم غير مسلّحة كما كان العرعر يتهمّهم بأن مقاومتهم ستكون بالضرورة كذلك، هي من الممارسات التي دأبت "إسرائيل" على ممارستها

* حصّ المؤلف الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية بهذه المقالة التي نشرت النسخة الأولى منها في مجلة سوشال تيكست في عدد حزيران 2025. ويأذن من المؤلف، ترجم النصّ عن الإنجليزية عبد الرحيم الشيخ.

لعقود خلت، بل إنها أرست نموذجاً لهذا النوع من الجرائم الذي تبنته قوى استعمارية أخرى، بما في ذلك الولايات المتحدة، في انتهاك صارخ لأعراف القانون الدولي.²

ربما تكون "إسرائيل" قد نالت من العرعر جسدياً، لكنها في كل ما عدا ذلك فشلت فشلاً ذريعاً في اغتياله. فتعليمه وإرشاده، ونموذجه، وكتاباتهِ وتحريره، ما زالت تُخلدُ عالمياً وتنتشر، مثل قصيدته الشهيرة الآن "إذا كان لا بدَّ أن أموت"، أكثر من أي وقت مضى.³ إن اسمه وأعماله، وصورة الطائرة الورقية البيضاء التي استحضرها في تلك القصيدة، أصبحت ترفع في المظاهرات التي تدين حرب الإبادة "الإسرائيلية" وتدعو إلى وقف إطلاق النار، فيما كتب عدد لا يُحصى من طلابه مرثي وتعهّدوا بمواصلة عمله في غزة وخارجها. وكما حدث مراراً [على مدار التاريخ]، فإن استشهاد ناشط مناهض للاستعمار على يد قوة استعمارية لم يسفر إلا عن إنتاج شخصية أيقونية، كنقطة محورية لتجسيد روح المقاومة وإرثها العملي. وكما قال العرعر بصيرة نافذة في قصيدته "إذا كان لا بدَّ أن أموت"، فإن في موته وحياته وعمله أصبح حكاية... حكاية ستعيش أطول من أسماء قاتليه وأفعالهم وآمالهم:

"إذا كان لا بدَّ أن أموت"

فليأت موتي بالأمل

وليكن حكاية.⁴

عندما كُتِبَتْ أول مرة، بعد بضعة أشهر من اغتيال العرعر: كان عدد الضحايا القابل للتسجيل جرّاء حملة الإبادة "الإسرائيلية" قد تجاوز أربعين ألفاً، وكان ما لا يقل عن 75٪ من سكان غزة، أي ما يقارب 1.7 مليون شخص وفقاً للأمم المتحدة، قد جرى تهجيرهم قسراً وأُجبروا على اللجوء إلى ما يُعرف بمناطق غزة الآمنة الآخذة في التقلُّص والتي لا أمان فيها لأحد، من القذائف والقصف "الإسرائيلي" المتواصل، وكان قد دُمِّر نحو 70٪ من المساكن في غزة، وحُرم السكان من الماء والغذاء والدواء والمأوى ومستلزمات الصحة العامة، وتُركوا لمواجهة الموت جرّاء المجاعة أو المرض إن لم يكن جرّاء القصف. ولذا، قد يبدو في غير محله [في ظلّ هذا كله] الاحتفاء بحياة فرد واحد أو الحداد على تغييبه.⁵ وعلى الرغم من ذلك، فإن من يفعلون هذا ليسوا مخطئين، ذلك أنهم يدركون الدلالة الاستعمارية الماكرة التي يجسدها اغتيال العرعر ويكتفّوها. فمن بين البنى التي دُمِّرت خلال العدوان "الإسرائيلي"، بالإضافة إلى المستشفيات التي استهدفت بشكل ممنهج وسافر، كانت مدارس وجامعات، بما في ذلك الجامعة الإسلامية حيث درّس العرعر، ومراكز ثقافية أخرى. في ذلك الوقت، كان أكثر من مائة صحفي قد قتلوا، وفي الغالب في منازلهم إلى جانب أفراد عائلاتهم، كما تمّ اعتقال أو جرح أو قتل العديد من كتّاب غزة ومعلميها، بما في ذلك ما لا يقل عن 221 معلماً بحلول كانون الثاني/يناير 2024.⁶ وقبل اغتياله هو أيضاً، تجرّع العرعر مرارة استشهاد ثلاثة من رفاقه الكتّاب الشباب الذين كان يُرشدهم، وهم: هدى السوسي، ورائد قدورة، ومحمد حمو.⁷ إن الحرب

الاستعمارية الإبادية التي تشنّها "إسرائيل" لا، ولن، تترك الحياة الثقافية في غزة خارج الإبادة، تماماً كما لا تستثني البنية التحتية المدنية أو الكتلة البشرية الهائلة من السكان المدنيين الذين يبادون بالقنابل أو يكرهون على الرحيل فيما تسميه "إسرائيل"، بسخرية، "هجرة طوعية" يجبرهم عليها رعب القنابل نفسها. فالعدوان على الحياة الثقافية في غزة ليس جانباً أقل جوهرية في المشروع الاستعماري-الاستيطاني من العدوان العسكري، بل قد يكون، في واقع الأمر، أكثر أبعاده قصدية ومنهجية.

في عشرينيات القرن الماضي، حين لم يكن الجيل المؤسس للصهيونية قد بدأ بعد في الادّعاء بأن مشروعه شيء آخر غير كونه مشروع استعمار استيطاني يهدف إلى التطهير العرقي للسكان الأصليين الموجودين فعلياً في فلسطين، طوّر [زئيف] جابوتنسكي، "عزّاب" الجناح اليميني في السياسة "الإسرائيلية"، أطروحته حول ضرورة إقامة "جدار حديدي"، وهي الأطروحة التي حكمت عملياً، وإن لم يُعترف بذلك صراحةً، علاقة "إسرائيل" بالفلسطينيين. أقرّ جابوتنسكي بأن "كل شعب أصلي سيقاوم المستوطنين الأغراب ما دام يرى في الأفق أي أمل للتخلّص من خطر الاستيطان الأجنبي. هكذا سيفعل العرب وسيواصلون فعلهم ما دام لديهم بصيص أمل في الحيلولة دون أن تصبح 'فلسطين' أرض إسرائيل.⁸ أما وصفته بـ"إقامة جدار حديدي من القوة العسكرية اليهودية"،⁹ فقد أُعيد ترديدها مراراً وتكراراً منذ 7 تشرين الأول/أكتوبر 2023، سواء للإشارة إلى السياج العسكري المحيط بغزة أو لإحياء عقيدته.¹⁰ لقد اعترف جابوتنسكي بصراحة أن الاستيطان الصهيوني لا يمكن أن يتقدّم إلا "بحماية قوة لا تعتمد على السكان المحليين، خلف جدار حديدي يعجزون تماماً عن اختراقه."¹¹ وفقط حين يواجه الفلسطينيون بهذا العجز المطلق، سوف يرغمون على "القبول" بالمشروع الصهيوني لاستيطان أراضيهم. فالهدف الأساسي من استخدام القوة العسكرية، بحسب جابوتنسكي، هو بثّ اليأس، إذ "طالما احتفظ العرب ببصيص أمل في القدرة على التخلّص منا، فلن يكون في وسع أيّ شيء في هذا العالم أن يجعلهم يتخلّون عن هذا الأمل، وذلك تحديداً لأنهم ليسوا رعاغاً، بل شعب حيّ، والشعب الحيّ لا يمكن أن يرضخ في قضايا مصيرية كهذه إلا عندما يفقد كل أمل ممكن في التخلّص من المستوطنين الأغراب."¹²

وعلى ذلك، يتوجّب أن نوّكد أنه بالنسبة لجابوتنسكي، "الذي لم يتسلّل الشكّ إلى يقينه بأن القوة العسكرية اليهودية كانت العامل الحاسم في الصراع من أجل دولة،"¹³ لم يكن هدف الجدار الحديدي بالدرجة الأولى هو الغزو العسكري، فالقوة العسكرية والشرطية البريطانية، في نهاية المطاف، ظلّت تحمي الاستيطان الصهيوني المسلّح وتعاون معه حتى العام 1947. لقد كان المقصود من الجدار الحديدي، الذي أضيف إليه لاحقاً جدار الفصل العنصري "الإسرائيلي"، في المقام الأول تقليص "الشعب الحي" إلى حالة اليأس، وتقويض المقاومة عبر بثّ الإحباط والشلل أو الجمود. ومع أنه منذ العام 1948 فصاعداً أصبحت القوة العسكرية الصهيونية مكرّسة بشكل متزايد لغرض الغزو والاحتلال، والتطهير العرقي والمجازر، والأحكام العرفية والحصار، فإن المبرر الأوّل للجدار الحديدي ظلّ فاعلاً. لقد استهدف استعمال "إسرائيل" للقوة تحويل نفسية الفلسطينيين، وتقليص إرادة المقاومة الكامنة في إحساس الفلسطيني بحياته الثقافية وهويته كشعب له حق دائم في البقاء على الأرض، الإحساس الذي يستند إليه رفضهم "الاستيطان الأجنبي" والتهجير

والمصادرة والسرقة. بالنسبة لجابوتنسكي، فالمقاومة الفلسطينية، وتحديداً لأنها ردُّ فعل طبيعي ومتوقَّع على الاستعمار الصهيوني، كان لا بدَّ، وفي المقام الأول، من إبادتها عبر الأثر النفسي لمشهد قوة لا تُقهر.

ولذا، ينبغي علينا أن نفهم هجمات "إسرائيل" المستمرة على المؤسسات الثقافية الفلسطينية والنشطاء الثقافيين باعتبارها استراتيجية استعمارية استيطانية نموذجية تهدف إلى القضاء على روح المقاومة. إن هذه الهجمات ليست نتيجة عرضية لضربات تستهدف قوات أو منشآت عسكرية، كما دأبت "إسرائيل" على الادِّعاء عادة. يمكننا فهم مشروع "إسرائيل" الاستعماري وما يواجهه على الدوام من تناقضات داخلية كسمات متشابكة لمشروع استعماري متأخر لكنه نمطيٌّ تماماً. لقد نشأت الصهيونية في ذروة التوسُّع الاستعماري الأوروبي وبالتزامن مع تحوُّل الولايات المتحدة من قرنٍ من التوسُّع الاستيطاني القاري إلى قوة إمبريالية عبر البحار... دخلت الصهيونية اللعبة (الاستعمارية) متأخرة ووجدت نفسها في مأزق الوجود كدولة استيطانية بينما كانت حركات التحرر من الاستعمار في عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تنهض لتلقي ذلك النمط من الهيمنة، الذي كان يوماً مألوفاً ومقبولاً، في غيابة العار. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة لتقديم قيام "إسرائيل" على أنه تحقيق للاستقلال عن القوة (الإمبريالية البريطانية) التي، مثل أم استعمارية صالحة، كانت قد حمت وتعاونت مع ودفعت طموحاتها الاستيطانية إلى الأمام، فإن خرافة "إسرائيل" الواهية بوصفها كياناً ما بعد استعماري لم تلبث أن انكشفت وتهافت. واقعة في المصيدة الأيديولوجية بين مطلب تقديم نفسها كديمقراطية غربية مثالية تتمتع بسيادة سلطة وستفالية، وبين حاجتها الدائمة لتأكيد طابعها الاستثنائي كدولة إثنية تقوم على الغالبية اليهودية وكملاذٍ لشعب مضطَّهد، أثبتت "إسرائيل" أنها غير قادرة على التنصُّل، لأكثر من بضعة عقود وجيزة، من حقيقتها الواضحة للفلسطينيين منذ البداية: أنها مستعمرة استيطانية نمطية تمارس نسختها الخاصة من أنظمة الفصل العنصري، وهي الأنظمة التي لا غنى عنها لكل كيان استيطاني يسعى إلى فرضها على السكان الأصليين الذين لا يستطيع إلا تمثيُّ اختفائهم.¹⁴ وأخذاً بعين الاعتبار هذا الوصول المتأخر إلى المشهد الاستعماري، فقد كانت "إسرائيل" ملزمة بإعادة إنتاج، وإن بصيغ قانونية زائفة ومموَّهة، ادِّعاءات الدفاع عن النفس، أو ضرورات الدولة، أي الممارسات والمبررات لتسويق نمط طويل الأمد من الهيمنة.

وأخذاً لهذا بعين الاعتبار، يجد المرء نفسه مضطراً للعودة، بانتظام غريب تقريباً، إلى الصياغات التأسيسية والجذرية الصريحة للمُنظِّرين المناهضين للاستعمار في حقبة تفكيك الاستعمار ما بعد الحرب (العالمية الثانية)، وذلك لتوضيح وفهم منطق الممارسات التي تبذل "إسرائيل" جهداً بالغاً في تمويلها بلاغياً، وعبر تشيبتها في أفعال، وقوانين، وتدابير إدارية متفرقة.¹⁵ إن تلك النصوص الكلاسيكية في التحليل المناهض للاستعمار ما زالت تقدِّم دروساً بالغة الأهمية للحاضر، حيث تُعيد أنماط العنف الاستعماري القديم إنتاج نفسها بتوقعية مفرغة وكأنها نتيجة [تراكم] منطق طويل ودقيق، أما آثارها المدمِّرة، فلا يسرّعها سوى التطوُّرات التكنولوجية. وهذا صحيح، بشكل خاص، حين يتعلَّق الأمر بالمنطق الكامن خلف استهداف "إسرائيل" حياة فلسطين الثقافية ومؤسساتها.

وكما أدرك الكاتب الكيني الكبير، والناشط الثقافي المناهض للاستعمار، والمنظر البارز لحركات تفكيك الاستعمار، نغوي واثيونغو، فإن "الإمبريالية، بقيادة الولايات المتحدة، توجّه للشعوب المناضلة في العالم، ولكل من يطالب بالسلام والديمقراطية والاشتراكية، إنذاراً نهائياً: إما القبول بالسرقة أو الموت، فيما يواصل المظلومون والمستغلون في العالم تحدّيهم لهذا الإنذار: الحرية من السرقة. لكن أخطر سلاح تمتلكه الإمبريالية وتطلقه فعلاً ضدّ العصيان الجمعي [للمستعمرين]، يومياً، هو القنبلة الثقافية. إن تأثير القنبلة الثقافية يتمثّل في تدمير إيمان الناس بأسمائهم، ولغاتهم، وبيئتهم، وإرثهم النضالي، ووجدتهم، وقدراتهم، وفي نهاية المطاف بأنفسهم. إنها تحملهم على النظر إلى ماضيهم كأرض يباب عامرة بالفشل، وتجعلهم يرغبون في النأي بأنفسهم عن تلك الأرض اليباب... بل إنها تزرع في أنفسهم شكوكاً جدّية حيال أخلاقية قضيتهم وعدالتها، وتجعل احتمالات النصر أو الغلبة تبدو أحلاماً بعيدة وسخيفة، لا تستحق التصديق. وأما النتائج المرجوة، فهي: اليأس، والقنوط، والرغبة الجماعية في الفناء".¹⁶

لقد سعت كلّ قوة استعمارية إلى تدمير الحياة الثقافية للشعوب الأصلية بطريقة ما، سواء عبر نفي قيمة الثقافة ومصادقيتها، أو بالسّعي إلى القضاء عليها عبر فرض التعليم بلغة المستعمر وتدمير أشكال التعليم أو نقل المعرفة الثقافية الأصلية، أو من خلال اغتيال شخصياتها الثقافية. إن هذا النمط يتكرّر في كل موقع استعماري، من تصريح اللورد [توماس] ماكولي الشهير، الجاهل وغير المستند إلى أي معرفة الذي أدلى به في العام 1835، بأن "رقاً واحداً من مكتبة أوروبية جيدة يعدل الأدب الأصلي كلّ في الهند والجزيرة العربية"، إلى جهود جنوب أفريقيا [الساعية إلى] إجبار الطلبة السود على دراسة اللغة الأفريكانية في مدارس الفصل العنصري، وهو ما أدّى إلى مظاهرات سويتو في العام 1976 والمجزرة التي أعقبت ذلك، والتي أدّت إلى إحياء الحركة الوطنية والعالمية لمناهضة الفصل العنصري.¹⁷ وكما جادل الباحث باتريك وولف، فإن "القضاء على السكان الأصليين" لا يأخذ فقط شكل الإبادة الجماعية، بل [يتضمن] أيضاً استخدام كافة أدوات الدمج القسري وتدمير الثقافة. وكما أكّد وولف، فإن "الاستعمار الاستيطاني إقصائي بطبيعته" تحديداً لأنه [في جوهره] يرتبط ارتباطاً مباشراً بـ"الوصول إلى الأرض". وكما سيتفق أي صهيوني مع هذا الطرح، فإن "الارتباط بالأرض هو العنصر المحدد وغير القابل للاختزال في الاستعمار الاستيطاني".¹⁸

من بين آليات الإقصاء التي يجادل وولف بأنها تلي المرحلة الأولى من الإبادة الجماعية العنيفة مجموعة كاملة من التكتيكات التي تهدف إلى الدمج الثقافي، وحتى البيولوجي، للسكان الأصليين، ومحو هويتهم الثقافية.¹⁹ لكن اللافت للنظر أن "إسرائيل"، وباستثناء تحويل ملكية الأراضي وإعادة تسمية الأرض ومعالمها، قد تجنّبت إلى حدّ بعيد استخدام الأساليب الإدماجية التي عدّها وولف، حتى أن فرض اللغة العبرية في التعليم العالي وفي الحياة السياسية "الإسرائيلية" فشل في محو اللغة العربية كلغة يومية لأغلبية الفلسطينيين في مناطق 1948. لكن هذا لا يعني أن "إسرائيل" ليست مستعمرة استيطانية، بل على العكس من ذلك، فإن إرادتها العنصرية لاستئصال الفلسطينيين من "أرض إسرائيل" متجذّرة للغاية وكأنّ لوثة مذنبية ينبغي محوها على نحو يجعل من أي محاولة لدمجهم، بيولوجياً أو ثقافياً، أمراً محرّماً [دينياً]. وتبعاً لذلك، فقد اتخذ الإقصاء الاستعماري الاستيطاني

"[الإسرائيلي]" شكلاً وصفه رشيد الخالدي بـ"السردية الإنكارية".²⁰ من شعار الصهاينة الذين كانوا أقل صراحة من [زئيف] جابوتنسكي، "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، إلى تصريح غولدا مائير الشهير بأنه لا وجود لشعب فلسطيني، والذي ردّد صده مؤخراً وزير مالية [بنيامين] نتنياهو الفاشي بتسلييل سموتريتش... وجد إصرار "إسرائيل" على محو الوجود الفلسطيني [موتلاً] في تعبيرات الخطاب الذي وصفه إدوارد سعيد بـ[فرض] "الانقراض المدني" للفلسطينيين المعبر عنه في "التدمير الفعّال للآثار العربية أُنّي أمكن ذلك".²¹ لقد كانت الإبادة الثقافية دائماً، ولا تزال، تسير بالتوازي مع التصفية المادية الممنهجة للفلسطينيين، سواء في حملات التطهير العرقي التي نصّت عليها الخطة دالت الموصوفة في نكبة 1947-1948 وفيما حدث بتواتر منذئذٍ. وكما قال الشاعر والناشط المارتينيكي الكبير المناهض للاستعمار، إيمي سيزير، باختصار بالغ في كتابه *خطاب عن الاستعمار Discourse on Colonialism* (1950)، فإن "الاستعمار [هو] آلة نسيان".²²

ثمة أكثر من ستين قانوناً تمييزياً داخل "إسرائيل" نفسها: من حرمان اللاجئين الفلسطينيين من حق العودة، إلى حرمانهم من حق لّم شمل الأسر، إلى تشريع التمييز العنصري في التجمعات، ومن شرعنة الاستثناء العنصري عبر رفض منح المواطنة إلى ضم السكان الفلسطينيين في القدس الشرقية المحتلة التي ضمّتها "إسرائيل" فعلياً... فإن كل هذه القوانين مصمّمة لضمان السيطرة الديموغرافية على أعداد الفلسطينيين.²³ إن النظام المصمّم بإحكام للتمييز والذي يؤسّس لإنكار الدولة اليهودية، كما تصف نفسها، الحقوق الإنسانية الأساسية لكل من أقليّتها الفلسطينية [فلسطيني 1948] ولسكانها في الأراضي الفلسطينية المحتلة، يشكّل نظام فصل عنصري ذا معاملة تمييزية عرقية، ويجعل ادّعاءها بأنها ديمقراطية أمراً بلا معنى. إن مسعى الصهيونية للسيطرة على التكاثر البيولوجي والديموغرافي للحياة الفلسطينية، وهو ما تجلّى في أكثر تعبيراته عبثية في المصطلح "الإسرائيلي"، "الغائبون الحاضرون"، لوصف الفلسطينيين الذين تمكّنوا من العودة إلى بيوتهم بعد المرحلة الأولى من النكبة في العام 1948، يسير جنباً إلى جنب مع الهجوم العنيف الأكثر سفوراً على المؤسسات والممارسين الذين يعيدون إنتاج الثقافة الفلسطينية.²⁴ وكما قالت نادرة شلهوب-كيفوركين، فإن "إسرائيل" تراقب الفلسطينيين، وتحصّهم، وتدير شؤونهم لضمان ألا يقاوموا، أو يعبروا عن آرائهم السياسية، أو يطرحوا قضية هويتهم كفلسطينيين، أو ينجبوا الكثير من الأطفال الذين قد يغيرون التركيبة الديموغرافية للأغلبية الحاكمة... ولضمان عدم زيادة أعداد الفلسطينيين، تشرّع "إسرائيل" قوانين وتستحدث أنظمة إضافية للتحكّم تحرم الأفراد غير المصرّح لهم [بالبقاء] من لّم شمل عائلاتهم، أو العودة إلى منازلهم وأراضيهم بطريقة قانونية، أو الوصول إلى شبكاتهم الاجتماعية.²⁵

إن الهوس بالسيطرة الديموغرافية يقابله دافع نحو إبادة ذاكرة حياة ثقافية فلسطينية مميزة. إلى جانب عقيدة الضاحية العسكرية "الإسرائيلية"،²⁶ التي تنتهك بوضوح القانون الدولي الإنساني واتفاقيات جنيف، والتي تقرّ صراحةً باستخدام تدمير المدنيين والبنى التحتية المدنية كنتكتيك يهدف لتصفية الدعم للمقاومة، ثمة تاريخ طويل من الاستيلاء على الأرضيات وتدميرها: من سرقة المكتبات الفلسطينية وغيرها من المنتجات الثقافية، بما في ذلك الوثائق القانونية والتاريخية الهامة، التي تحجز في مكتبات "إسرائيلية" تحت بند "الممتلكات المهجورة"، إلى نهب مركز الأبحاث- [التابع لـ] منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت في العام 1982، وإلى القصف المقصود

للمدارس ومباني الجامعات والمكتبات في كل عدوان "إسرائيلي" على غزة حتى الحرب الحالية، التي تجاوزت فيها مستويات تدمير الثقافة رقماً قياسياً يفوق كل ما سبق. إن السرقة أو التدمير المتعمدين للمواد الثقافية على امتداد فلسطين التاريخية، بما في ذلك المواقع التراثية والمباني، فضلاً عن القرى الفلسطينية التاريخية التي أخلت من سكانها بأعمال التطهير العرقي قبل هدمها، يمثل نمطاً مستمراً ومتواصلاً من محاولات محو الديمومة الثقافية للحياة الفلسطينية.²⁷ وباستدعاء إيمي سيزير ثانيةً، فالاستعمار يعني "مجتمعات فُرغت من جوهرها، وثقافات ديست تحت الأقدام، ومؤسسات قُوّضت، وأراضٍ صُوِّدَت، وأديان سُحقت، وإبداعات فنية رائعة دُمِّرت، وإمكانات استثنائية أُزيلت".²⁸ وقد ظهرت نية "إسرائيل" على مدار عقود أنها تسعى إلى إبادة كل الإمكانات التي قد يحملها مستقبل فلسطيني.

وعلى الرغم من ذلك، يواصل الفنانون والشعراء الفلسطينيون مقاومة إبادة تاريخهم، ووجودهم الإبداعي المكثف كثقافة، وتصوّرهم لمستقبل متحرّر من الهيمنة. ويبدو أن هذه المقاومة، التي تتجلى في الديمومة الإبداعية، تثير غضب المستعمر. إن استهداف الثقافة المادية، بتفسير حربي لمقولة "القنبلة الثقافية" لوائيونغو، يسير جنباً إلى جنب مع نمط ثابت من اغتالات واعتقالات الشخصيات الثقافية على مدى عقود من الزمن. ولعلنا نذكر أسماءهم، أو على الأقل بعضاً منهم، فأسماءهم كثيرة: غسان كنفاني، الكاتب والرسام، الذي اغتيل من قبل الموساد بسيارة مفخّخة في بيروت في تموز/ يوليو 1972 مع ابنة أخته لميس. والشاعر كمال ناصر، الذي اغتيل في منزله في غرب بيروت على يد قوات كوماندوز "إسرائيلية" خاصة في نيسان/ أبريل 1973. ووائل زعيتر، الكاتب والمترجم الذي اغتيل على يد الموساد في روما في تشرين الأول/ أكتوبر 1972... هؤلاء كلّهم "لم يكونوا إرهابيين"، بل كانوا الأصوات الأكثر شهرة للحركة الوطنية، الأصوات التي كانت "إسرائيل" مصمّمة على إسكاتها.²⁹ في الحرب "الإسرائيلية" الحالية على غزة، تستمر الاغتيالات بالمنطق ذاته: بالإضافة إلى العرير وطلبتة، استهدفت "إسرائيل" سفيان تايه، الباحث البارز في الفيزياء والرياضيات التطبيقية ورئيس الجامعة الإسلامية، الذي استشهد مع عائلته في غارة جوية "إسرائيلية" في 2 كانون الأول/ ديسمبر 2023.³⁰ وأحمد أبو ارتيمة، الكاتب والناشط اللاعنفي، ومؤسس مسيرة العودة الكبرى في العام 2018، الذي جُرح في غارة "إسرائيلية" قضى فيها أيضاً ابنه عبود وخمسة من أفراد أسرته، والروائية والشاعرة هبة أبو ندى، التي قضت في غارة جوية "إسرائيلية" في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 2023.³¹ كما تمّ اعتقال عدد من الكتاب والشعراء بسبب جرأتهم: مصعب أبو توهة، الشاعر ومؤسس مكتبة إدوارد سعيد التي دُمِّرت حالياً في غزة،³² والذي اعتقل وتعرّض للضرب على يد القوات "الإسرائيلية" في تشرين الثاني/ نوفمبر 2023. والشاعرة دارين طاطور، التي اعتُقلت أو وُضعت تحت الإقامة الجبرية لسنوات عدّة حتى إدانتها في العام 2018 بتهمة التحريض على العنف ودعم منظمات إرهابية، وذلك كلّه بسبب نشرها قصيدة تمجّد المقاومة الفلسطينية على وسائل التواصل الاجتماعي.³³ أما محمود درويش، الذي كان نفسه "غائباً حاضراً"، فقد سُجن بسبب إلقاء الشعر والتنقّل بين القرى دون تصريح في ظلّ قوانين الحكم العسكري "الإسرائيلية" التي استهدفت الفلسطينيين في ستينيات القرن العشرين، ووُضع تحت الإقامة الجبرية عندما تحوّلت قصيدته "بطاقة هوية" إلى أغنية احتجاجية. وبعد اعتقالات متكررة على يدي السلطات "الإسرائيلية"،

ذهب درويش إلى المنفى ووجد ملجأً في بيروت، حيث شهد على سلب الأرشيفات الفلسطينية التي كان يعمل فيها أثناء العدوان "الإسرائيلي" على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان في العام 1982، وحيث واجه الطرد مرة أخرى.³⁴

كما يكتب المؤرخ رشيد خالدي، فإن "سياسة [إسرائيل] طويلة الأمد في تصفية القادة الفلسطينيين، والموروثة من الحركة الصهيونية خلال فترة الانتداب المتأخرة، استهدفت القضاء على الوجود الفلسطيني الديموغرافياً وثقافياً وسياسياً. ولذا، كانت الاغتيالات عنصراً مركزياً في طموح 'إسرائيل' بتحويل البلاد بأكملها، من النهر إلى البحر، من بلد عربي إلى بلد يهودي."³⁵ ويمكننا أن نضيف إلى وصف الخالدي المشهد المستمر لجهود "إسرائيل" الهادفة إلى تحقيق محو الثقافة الفلسطينية، بما في ذلك اغتيال الأصوات الثقافية الفلسطينية أو اعتقالها العقابي. وكما رأينا، فقد قدّم واثيونغو تفسيراً للهجوم المستمر للدول الاستعمارية على الحياة الثقافية للمستعمرين. إن استهداف الثقافة ومؤسساتها، شأنه شأن مثيله العسكري-الجدار الحديدي، يهدف إلى بثّ شعور باليأس والقنوط. ومع ذلك، وكما يظهر تاريخ كل حركة مناهضة للاستعمار، فإن هذا الجهد الباعث على اليأس والسلبية بين المستعمرين نادراً ما يكون ناجحاً لفترة طويلة. إن تنظيم المقاومة وممارستها لا يمكن أن ينفصلا عن إحياء الحركة الثقافية الخالقة والخلافة، والتي تتسم بالإبداع تحديداً بسبب الظروف الجارية باستمرار التي يجب أن تتعامل معها.

كان رفعت العرعر يعرف هذا التاريخ، وكان يعلم أنه حتى في موته لن يكون وحيداً. كان واحداً من سلالة طويلة ومكرّمة من الكتاب والفنانين الذين كانت مقاومتهم الثقافية، والتي هي أيضاً ديمومة ثقافية وحياة مستمرة للفلسطينيين في كل مكان، عصية على محاولة "إسرائيل" دائماً القضاء عليها، تماماً كما حاولت إنكار وجود الفلسطينيين كشعب لهم الحق غير القابل للتنازل عنه في تقرير المصير والوجود المستمر لأجيال على الأرض التي تسعى "إسرائيل"، بتعبيرها القبيح والمرجّع تاريخياً، إلى تهويدها بلا هوادة. ولم يقلل العرعر أبداً من أهمية الأدب في عمل المقاومة المناهضة للاستعمار، إذ رفض دائماً فتنة الدفاع عن الكتاب الذين وقعوا ضحايا عنف الاستعمار الاستيطاني بتقليل أهمية عملهم المركزي لتحرير فلسطين. وقد جادل ضدّ هذا الميل خلال حديثه عن الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان، قائلاً "نحن دائماً نقع في هذا الفخ عندما نقول: 'لقد تم اعتقالها فقط لأنها كتبت شعراً!' إننا نفعل ذلك كثيراً، حتى نحن المؤمنون بالأدب. 'لماذا تعتقل 'إسرائيل' شخصاً أو تضعه تحت الإقامة الجبرية، لأنها كتبت قصيدة وحسب؟' ولذا، فإننا نناقض أنفسنا أحياناً. فنحن نؤمن بسلطة الأدب في تغيير الحياة كوسيلة للمقاومة، وكوسيلة للردّ، وفي نهاية المطاف نقول: 'هي فقط كتبت قصيدة!' لا ينبغي لنا أن نقول ذلك."³⁶

لقد كان العرعر واعياً إلى أن مشروع الاستعمار الاستيطاني مصمّم على القضاء ليس على الحياة المادية للشعوب المحتلة وحسب بل وعلى حياتهم الثقافية، ومحو كل أثر لوجودهم الثقافي السابق على الأرض. [ولذا،] فإن ما يسميه واثيونغو "الثقافة العليا والأكثر إبداعاً للنضال قوي الإرادة" لا يعتبر ترفاً، بل هو شكل لا غنى عنه من أشكال المقاومة.³⁷ إن الإبداع الفلسطيني في المجالات كلّها، الشعر والسينما والمسرح والفنون البصرية، وازدهاره وتجديده في وجه الجهود "الإسرائيلية" المكثّفة لاستكمال احتلالها، يتصادى مع دروس نضالات تفكيك

الاستعمار في كل زمان ومكان. وقد قدّم أميلكار كابرا، المناضل والمنظر المناهض للاستعمار من غينيا بيساو والرأس الأخضر، في العام 1970 تحليلاً يمكن نقله من مستعمرات البرتغال في غرب أفريقيا إلى فلسطين اليوم، [إذ يقول]: "التاريخ يعلمنا أنه في ظروف معينة، من السهل جداً على الأجنبي أن يفرض سيطرته على شعب ما. لكنه يعلمنا أيضاً أنه، مهما كانت الجوانب المادية لهذه السيطرة، فلا يمكن الإبقاء عليها إلا من خلال القمع الدائم والمنظم للحياة الثقافية للشعب المعني... وحقيقة، فإن حمل السلاح للسيطرة على شعب ما هو، قبل كل شيء، حمل السلاح لتدمير أو على الأقل، تحييد وشلّ حياتهم الثقافية. وطالما أن جزءاً من ذلك الشعب يمكنه امتلاك حياة ثقافية، فإن السيطرة الأجنبية ستظل غير واثقة من بقائها."³⁸

وبالتالي، فإن "السيطرة الأجنبية، ومن أجل أمنها الخاص، تتطلّب القمع الثقافي ومحاولة التدمير المباشر أو غير المباشر للعناصر الأساسية لثقافة الشعوب المهيمن عليها."³⁹ فالقنبلة [الفعالية] التي تزن طناً التي تُسقط على المناطق المدنية المكتظة تجد نظيرها في القنبلة الثقافية التي تهدف إلى القضاء على حيوية أشكال حياة المستعمرين. كما كان واضحاً لكابرا، على وجه التحديد، وبقدر ما تنكر الهيمنة الاستعمارية "العملية التاريخية للشعب المهيمن عليه، فهي بالضرورة تنكر عمليتهم الثقافية،" فإن المقاومة يجب أن تمرّ عبر النضال الثقافي: "التحرير الوطني هو بالضرورة فعل ثقافي."⁴⁰ هذا صحيح لأن النضال الثقافي، كما فهم كابرا، فعلياً، ومن خلال إبداعه الخاص وطاقته التحولية، يعيد التاريخ إلى الشعب: يعيد إليهم معرفة ماضيهم بكل تناقضاته وهزائمه واستمرارياته وموارده، ويعيد إليهم فاعليّتهم التاريخية باعتبارهم صانعي إمكانياتهم، وليس كضحايا لما تصوّره فرانز فانون كثقافة استعمارية أصبحت مشلولة أو متكلّسة "بلا حراك."⁴¹

إن النضال الثقافي، كما علّمه رفعت العرعير ومارسه، ليس مجرد تقديم تمثيلات أكثر دقة للحياة الفلسطينية، مهما كانت هذه المهمة مهمة: فإذا كانت الحكاية التي هي حياته (مثل قصص العديد من الكتّاب، الذين رغم كثرتهم، ليسوا مجرد أرقام)، هي حكاية تُورث لـ[أجيال] المستقبل، فهي أيضاً حكاية تُشكّل المستقبل، وتفتح إمكانيات بطرق لم تتحقق بعد. في فتح خيالات المستقبل، يرفض عمل المقاومة الثقافية إعادة إنتاج التناقضات الهمجية وعقليات الفصل العنصري خاصة منطق الاستعمار الاستيطاني. وفي إصراره الدائم على الاعتراف بالإنسانية حتى لأولئك الذين سعوا إلى قتله هو وغيره من الفلسطينيين الذين أحبّهم، كان [العرعير] يتصادى مع [محمود درويش، الذي كتب، في خضمّ الحصار "الإسرائيلي" على رام الله في العام 2002 خلال الانتفاضة الثانية:

"قلنا لهم: هدنة، هدنة لامتحان النوايا،

فقد يتسرّب شيء من السلم للنفس!

عندئذٍ، نتبارى على حبّ أشيائنا

بوسائلٍ شعرية."⁴²

بينما لم يكف العرعر يوماً عن إدانة وحشية الحصار "الإسرائيلي" وحروبه المتكررة على فلسطين، وأدرك السخرية البشعة لاستمرارية منطق [الصهاينة] العنصري مع الوحشية المعادية للسامية للنازية، إلا أن هذا الإدراك لم يقد إلى الردّ على الكراهية العنيفة بالكراهية. فعلى العكس من ذلك، وكما عكست قصيدته "أنا أنت"، فإن الفلسطينيين، كما في مقولة إدوارد سعيد، عالقون في مأزق مستحيل يتمثل في كونهم ضحايا الضحايا، باستثناء في حالة الجندي اليهودي الذي يحمل بندقية الآن حيث "تطوّرت الضحية، على نحو رجعي، لتصير مضحية [بآخرين]" (أي إن الضحية صارت جلاداً):

"أنا فقط أنت.

أنا ماضيكَ الذي يُطارِدُ

حاضرُكَ ومستقبلُكَ.

أناضُلُ كما فعلت أنتُ.

أقاتلُ كما فعلت أنتُ.⁴³

إن الثقافة الفلسطينية التي تستميت "إسرائيل" لمحوها، تواصل مطاردة ["إسرائيل"]، ولكن في فعل ذلك، المتخيّل الفلسطيني ليس شبح الماضي، بل شبح المستقبل: مستقبل غير محاصر بالتكرار الكئيب للكراهية والإبادة، بل يتخيّل إمكانية حياة جماعية تستند على تحقيق التعايش مع الاختلاف بكل تعدّدِيّته... وهـ[كذا]، سيكون مجيء العدالة الشعرية كنهج وممارسة للتحرر من الاستعمار

الإحالات

[1] Tamara Nassar, "Refaat Alareer Was Assassinated by Israel," *Electronic Intifada*, 9 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://electronicintifada.net/blogs/tamara-nassar/refaat-alareer-was-assassinated-israel>.

وانظر كذلك:

Catherine Baker, ed., *We Are Not Numbers*, accessed 6 September 2025.

<https://wearenotnumbers.org>.

[2] بالنسبة لسخرية العرعر عن قلم السبورة الأبيض الذي كان سلاحه الوحيد، انظر:

Rana Al- Shorbaji, "Our Stories Matter," *Electronic Intifada*, 19 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://electronicintifada.net/content/our-stories-matter/42941>.

وعن الطرق التي من خلالها تساهم الاغتيالات المستهدفة التي تقوم بها "إسرائيل" ("إعدامات ميدانية، تعسفية، وإجراءات) موجزة خارجة عن القانون، ومحزومة بموجب القانون") في جعل القانون والأعراف الدولية الجديدة تصبح تدريجياً "انتهكات تصير هي القاعدة لا الاستثناء". انظر:

Noura Erakat, *Justice for Some: Law and the Question of Palestine* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2019), 178, 185.

الفصل الخامس، بعنوان: "من الاحتلال إلى الحرب"، في كتاب نورا عريقات يقدّم سرداً لا يقدر بثمن عن كيفية نجاح "إسرائيل"، بالتعاون مع الولايات المتحدة، في استغلال سياق "الحرب على الإرهاب" لتبرير جرائم الحرب التي تقترفها، مُعلنَةً على نحو خطير "أن ظروفها غير المسبوقة تجيز لها سنّ قانون جديد لنفسها وللآخرين جميعاً." (183) هذا، ولم تتلكأ الولايات المتحدة في تطبيع عمليات الاغتيال المستهدفة الخاصة بها، خاصة في ظلّ إدارتي [باراك] أوباما و[جو] بايدن.

[3] Ramzy Baroud, " 'If I Must Die, Let It Be a Tale': On the Martyrdom of Palestinian Poet Refaat Alareer," *Common Dreams*, 15 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.commondreams.org/opinion/refaat-alareer-poet-gaza>.

[4] Refaat Alareer, *If I Must Die: Poetry and Prose*, ed. Yousef Aljamal (New York: OR Books, 2024), 19.

[5] إن أي رقم يُقدّمه المرء لمستويات الدمار والضحايا في عدوان "إسرائيل" الإباضي على غزة سيكون بالضرورة متغيراً وغير مستقر، ليس بسبب عدم موثوقية المصادر كما يُزعم أحياناً، بل بسبب كون الأعداد تتزايد يومياً على نحو مرعب بمعدل تصعب متابعته، لا سيما مع أخذ الفاصل الزمني بين كتابة النص ونشره بعين الاعتبار. لكن في 20 أيار/ مايو 2024، قدّمت إيدم وسورنو، مديرة قسم العمليات والمانصرة في مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، رقماً يقدر بنزوح 1.7 مليون شخص (الأمم المتحدة، "المحدثون في مجلس الأمن")، وكما ذكرت مجلة *Architectural Record* أن نسبة تدمير المساكن بلغت 70٪ (شولمان، "خبراء يقيّمون أضرار الإسكان")، بينما يُعتبر عدد القتلى المتزايد الذي أعلنته وزارة الصحة في غزة تقديراً منخفضاً بكل تأكيد، وذلك نظراً لأن العديد من القتلى ما زالوا تحت أنقاض منازلهم. هذا، وتوفر قناة الجزيرة متتبّعاً حياً ومباشراً للإحصائيات من غزة والذي يعتبر إلى حدّ كبير موثقاً ويتمّ تحديثه بانتظام (*A/Labs*، "حرب إسرائيل-غزة في خرائط ورسوم بيانية").

للمزيد انظر:

United Nations, "Speakers in Security Council Urge Israel to Stop Military Incursions into Rafah," *UN: Meetings Coverage and Press Releases*, 20 May 2024, accessed 6 September 2025.

<https://press.un.org/en/2024/sc15701.doc.htm>.

Pansy Schulman, "Experts Assess Housing Damage in Gaza and Make Plans for Recovery as Bombs Continue to Fall," *Architectural Record*, May 24 2024, accessed 6 September 2025.

<https://www.architecturalrecord.com/articles/16918-experts-assess-housing-damage-in-gaza-and-make-plans-for-recovery-as-bombs-continue-to-fall>.

AJLabs, "Israel- Gaza War in Maps and Charts: Live Tracker," *Al Jazeera*, last updated 30 June 2024, accessed 6 September 2025.

<https://www.aljazeera.com/news/longform/2023/10/israel-hamas-war-in-maps-and-charts-live-tracker>.

[6] لا يزال عدد الصحفيين الذين قُتلوا غير مؤكد، كما هو الحال مع أي حصيلة للضحايا، نظراً لحجم العدوان "الإسرائيلي"، ومن المؤكد أن الرقم أعلى بكثير في وقت وقف إطلاق النار (كانون الثاني/ يناير 2025) مما كان عليه وقت كتابة هذا النص. الرقم الذي أعلنه مكتب الإعلام الحكومي في غزة كان 100 صحفي، في 23 كانون الأول/ ديسمبر 2023 (الجزيرة، "مكتب إعلام غزة"). أما لجنة حماية الصحفيين، فقدّمت رقماً أكثر تحفظاً وهو 82 في 14 كانون الثاني/ يناير 2024 (CPJ)، "ضحايا الصحفيين في حرب إسرائيل-غزة"، ويرصد متبّع الجزيرة الحي والمباشر 100 قتيل حتى 5 نيسان/ أبريل 2024. في كلتي الحالتين، فالأرقام هي الأعلى المسجلة في أيّ صراع، وقد اتّهم الصحفيون الفلسطينيون ["إسرائيل"] على نطاق واسع أنهم مستهدفون بشكل متعمّد. أفاد مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (OCHA) بأنه "وفقاً لوزارة التربية والتعليم في غزة، بين 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 و2 كانون الثاني/ يناير 2024، قُتل 4,119 طالباً و221 معلماً، بينما أصيب 7,536 طالباً و703 معلماً في أنحاء قطاع غزة." (OCHA، "الأعمال العدائية في قطاع غزة وإسرائيل").

للمزيد انظر:

Al Jazeera, "Gaza Media Office Says One Hundred Journalists Killed since Israeli Attacks Began," 23 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.aljazeera.com/news/2023/12/gaza-media-office-says-100-journalists-killed-since-israeli-attacks-began>

CPJ (Committee to Protect Journalists), "Journalist Casualties in the Israel- Gaza War," Last updated 20 April 2024, accessed 6 September 2025.

<https://cpj.org/202310/journalist-casualties-in-the-israel-gaza-conflict/>.

OCHA (Office for the Coordination of Humanitarian Affairs), "Hostilities in the Gaza Strip and Israel: Flash Update #94," accessed 6 September 2025.

<https://www.unocha.org/publications/report/occupied-palestinian-territory/hostilities-gaza-strip-and-israel-flash-update-94#>.

[7] يمكن النفاذ إلى أعمال هؤلاء الكتّاب الشباب الثلاثة عبر موقع الانتفاضة الإلكترونية:

هدى السوسي، شوهدي في 6 أيلول 2025.

<https://electronicintifada.net/people/huda-al-sousi-0>.

رائد قدورة، شوهدي في 6 أيلول 2025.

<https://electronicintifada.net/content/why-has-gazas-sea-turned-black/35671>.

محمد حمو، شوهدي في 6 أيلول 2025.

<https://electronicintifada.net/content/gaza-photographer-captured-and-tortured-israel/38371>.

[8] مقتبس في:

Avi Shlaim, *The Iron Wall: Israel and the Arab World* (New York: Norton, 2000), 13.

[9] Ibid., 13 – 14.

[10] انظر على سبيل المثال:

Jon Swaine, Joyce Sohyun Lee, Sarah Cahlan, Imogen Piper, Brian Monroe, Evan Hill, and Meg Kelly, "How Hamas Exploited Israel's Reliance on Tech to Breach Barrier on Oct. 7," *Washington Post*, 17 November 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.washingtonpost.com/investigations/202317/11/how-hamas-breached-israel-iron-wall/>.

Nave Dromi, "After October 7, Israel Must Finally Build Jabotinsky's 'Iron Wall,'" *Middle East Forum*, 2 November 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.meforum.org/after-october-7-israel-must-finally-build-65139>.

[11] مقتبس في:

Shlaim, *Iron Wall*, op. cit., 13.

[12] مقتبس في:

Ibid., 14.

وصف جابوتنسكي بأنه "عزّاب التيار السياسي الذي هيمن على 'إسرائيل' منذ العام 1977" (أي حزب الليكود وحلفائه الأكثر يمينية من حركة المستوطنين)، مقتبس في الخالدي:

Rashid Khalidi, *The Hundred- Years War on Palestine: A History of Settler Colonialism and Resistance, 1917 – 2017* (New York: Metropolitan Books, 2020), 12.

[13] Shlaim, *Iron Wall*, op. cit., 16.

[14] عن تذبذب إسرائيل المتناقض بين النمطية والاستثنائية، انظر:

David Lloyd, "Settler Colonialism and the State of Exception: The Example of Palestine/Israel," *Settler Colonial Studies* Vol. 2, No. 1 (2012): 59–80.

[15] يظلُّ كتاب ساري مقدسي **فلسطين من الداخل** دراسة استقصائية للانحرافات القانونية التي تستخدمها "إسرائيل" للحفاظ على نظام فصل عنصري متقن التخفي، على الرغم من أن تمرير قانون القومية في العام 2018 ألقى إلى حدٍّ كبير محاولات لتغطية الفصل العنصري من خلال تشييت ممارساته. يحلّل [ليرون] مور في مقالته "عن الانقسام: شذرات عن زمن الانقسام" الطبيعة المجزأة للحياة الفلسطينية تحت حكم المستوطنين كشكل مميز من أشكال الهيمنة "الإسرائيلية".

Saree Makdisi, *Palestine Inside Out: An Everyday Occupation* (New York: W. W. Norton, 2008).

Liron Mor, "On Severance: Fragments on the Time of Inqisam," *Critical Inquiry In the Moment*, 5 August 2024, accessed 6 September 2025.

<https://criting.wordpress.com/2024/05/08/on-severance-fragments-on-the-time-of-inqisam/>.

[16] Ngũgĩ Wa Thiong'o, *Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature* (Portsmouth: Heinemann, 1986), 3.

[17] يعترف [توماس] ماكولي بجهله بالأدب الذي يستهين به: "ليست لديّ معرفة بالسنسكريتية أو العربية، لكنني بذلت ما في وسعي لتكوين تقدير صحيح لقيمتها: قرأت ترجمات لأشهر الأعمال العربية والسنسكريتية، وتحذّث هنا وفي بلدي مع رجال متميزين في إنقان اللغات الشرقية، كما أنني مستعد تماماً لأخذ التعلم الشرقي وفقاً لتقييم المستشرقين أنفسهم، ولم أجد من بينهم أحداً ينكر أن رفاً واحداً من مكتبة أوروبية جيدة يساوي كل الأدب الأصلي للهند والجزيرة العربية. إن التفوق الأساسي للأدب الغربي معترف به بالكامل من قبل أعضاء اللجنة الذين يدعمون خطة التعليم الشرقي".

Thomas Babington Macaulay, "Indian Education (Minute of the 2nd of February, 1835)" in *Prose and Poetry*, ed. G. M. Young, (Cambridge: Harvard University Press, 1967), 719 – 720, 722.

ويمكن الاطلاع على سرد تفصيلي لانتفاضة سويتو وأسبابها في:

SAHO (South African History Online: A People's History), "The June 16 Soweto Youth Uprising," 21 May 2013, accessed 6 September 2025.

<https://sahistory.org.za/article/june-16-soweto-youth-uprising>.

[18] Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," *Journal of Genocide Research*, Vol. 8, No. 4 (2006): 387–409.

[19] Ibid., 388.

[20] Khalidi, *Hundred- Years War on Palestine*, op. cit., 106.

[21] عن خطة دالت والقضاء على الفلسطينيين الذي خطّط له، انظر:

Ilan Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine* (Oxford: Oneworld, 2006).

كما أن تصريحات جولدا مائير واردة في:

Khalidi, *Hundred- Years War on Palestine*, op. cit., 106.

وللاطلاع على تصريحات سموتريتش، انظر:

Hadas Gold, Amir Tal, and Abeer Salman, "Israeli Minister Says There's 'No Such Thing as a Palestinian People,' Inviting US Rebuke," *CNN*, 21 March 2023, accessed 6 September 2025.

<https://edition.cnn.com/2023/21/03/middleeast/israel-smotrich-palestinians-intl.>

إن استنكار الولايات المتحدة يتطابق مع الإنكار والنسيان، متناسبة أن الوجه المقبول للصهيونية ملتزم بالقدر نفسه بنفي الفلسطينيين وإبادتهم كما هو الحال مع اليمين المتطرف، لكن فقط ببراعة في إخفاء الأهداف. وللمزيد عن الإبادة المدنية، انظر سعيد:

Edward Said, "Zionism from the Standpoint of Its Victims" in *The Question of Palestine* (New York: Vintage Books, 1992), 103, 114 – 56.

[22] Aimé Césaire, *Discourse on Colonialism*, trans. Joan Pinkham (New York: Monthly Review Press, 2000), 52.

[23] لتوثيق وفرة القوانين التمييزية في "إسرائيل"، انظر:

Adalah: The Legal Center for Arab Minority Rights in Israel, "Discriminatory Laws," accessed 6 September 2025.

<https://www.adalah.org/en/tag/index/571.>

[24] قدّم سعيد وصفاً لاذعاً لهذا التصنيف للسكان الأصليين لما صار دولة "إسرائيل"، باعتباره "خيال قانوني ذو دقة كافكاوية".

Edward Said, "Zionism from the Standpoint of Its Victims," op. cit., 105.

[25] Nadera Shalhoub-Kevorkian, *Security Theology, Surveillance, and the Politics of Fear* (Cambridge: Cambridge University Press, 2015), 56; Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*, op. cit., 249-256.

إن اعتقال شلهوب-كيفوركيان نفسها، الأستاذة العالمية المعروفة في الجامعة العبرية في القدس، وتعرضها لتقنيات استجواب تعادل التعذيب في نيسان/أبريل 2024 بسبب التعبير عن آرائها السياسية وتأكيدها على طابع "إسرائيل" الاستعماري الاستيطاني، يعتبر تأكيداً كبيراً على شمولية تطبيق الجهاز القانوني لنظام لفصل العنصري "الإسرائيلي" على جميع الفلسطينيين دون استثناء.

[26] للمزيد عن عقيدة الضاحية، الذي استشهد به علناً عضو مجلس الحرب الحالي اللواء غادي إيزنكوت:

Rashid Khalidi, "The Dahiya Doctrine, Proportionality, and War Crimes," *Journal of Palestine Studies*, Vol. 44, No. 1 (2014): 5–13.

[27] بشأن نهب مركز الأبحاث-منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت في العام 1982، انظر حجازي:

Ihsan A. Hijazi, "Israeli Looted Archives of P.L.O., Officials Say," *New York Times*, 1 October 1982, accessed 6 September 2025.

<https://www.nytimes.com/198201/10/world/israeli-looted-archives-of-plo-officials-say.html>.

ومن بين الأمثلة الحديثة على هذا النوع من التدمير، خلال المرحلة الأخيرة من حرب "إسرائيل" على غزة، المسجد العمري، وكنيسة القديس بورفيروس، وكلاهما قُصِفَ بذريعة "ملاحقة حماس".

BBC Online, "Images Show Major Damage to Gaza's Oldest Mosque," 8 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.bbc.com/news/world-middle-east-67664853>.

Chloe Veltman, "More Than One Hundred Gaza Heritage Sites Have Been Damaged or Destroyed by Israeli Attacks," *NPR Online*, 3 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.npr.org/20231216200754/03/12/gaza-heritage-sites-destroyed-israel>.

[28] Césaire, *Discourse on Colonialism*, op. cit., 43.

[29] Khalidi, *Hundred- Years War on Palestine*, op. cit., 128.

[30] Reuters, "Israeli Air Strike in Gaza Kills Prominent Scientist Sufyan Tayeh, Palestinian Ministry Says," 3 December 2023, accessed 6 September 2025.

<https://www.reuters.com/world/middle-east/israeli-air-strike-gaza-kills-prominent-scientist-sufyan-tayeh-palestinian-2023/02-12->

[31] يمكن الاطلاع على أعمال أحمد أبو ارتيمة من خلال الرابط التالي، شوهده في 6 أيلول 2025.

<https://electronicintifada.net/people/ahmed-abu-artema>.

يمكن الاطلاع على أعمال هبة أبو ندى من خلال الرابط التالي، شوهده في 6 أيلول 2025.

<https://mizna.org/literary/not-just-passing/>.

[32] Dan Sheehan, "Read Mosab Abu Toha's Statement on the Destruction of the Edward Said Library in Gaza," *Literary Hub*, 24 January 2025, accessed 6 September 2025.

<https://lithub.com/read-mosab-abu-tohas-statement-on-the-destruction-of-the-edward-said-library-in-gaza/>.

[33] *Al Jazeera*, "Dareen Tatour Sentenced to Five Months in Prison over Poem," 31 July 2018, accessed 6 September 2025.

<https://www.aljazeera.com/news/201831/7//dareen-tatour-sentenced-to-five-months-in-prison-over-poem>.

[34] للاطلاع على شهادة درويش عن هذه الأحداث الأخيرة، انظر:

Mahmoud Darwish, *Memory for Forgetfulness: August, Beirut, 1982*, trans. Ibrahim Muhawi (Berkeley: University of California Press, 1995).

إن كنت قد ركزت طوال الوقت على الكتاب المستهدفين في الهجمات "الإسرائيلية" المختلفة على الثقافة الفلسطينية على اشتغال رفعت العرعير، فهذا لا يعني التقليل من قيمة الإبداع في النتاج الثقافي الفلسطيني بأشكاله الأخرى، من الموسيقى إلى صناعة الأفلام، ولا يعني تجاهل العقبات التي تواجهها هذه الإبداعات كلها على شكل احتلال وتهجير وتدمير ورقابة. ولكن انظر، على سبيل المثال، فيما يتعلق بالفنون البصرية:

Hanan Toukan, *The Politics of Art: Dissent and Cultural Diplomacy in Lebanon, Palestine, and Jordan* (Stanford: Stanford University Press, 2021); David Lloyd, "Redemptive Constellations: Irish- Palestinian Relays in Emily Jacir's Notes for a Cannon," *Third Text*, Vol. 34, No. 3 (2020): 2– 23.

[35] Khalidi, *Hundred- Years War*, op. cit., 127.

[36] وعن طوقان، انظر:

Muna H. Khalidi, "This Land, My Sister, Is a Woman': Fadwa Tuqan's Legacy as a Feminist Icon," *Institute for Palestine Studies*, 30 September 2022, accessed 6 September 2025.

<https://www.palestine-studies.org/en/node/1653278>.

[37] Wa Thiong'o, *Decolonising the Mind*, op. cit., 3.

[38] Amilcar Cabral, "National Culture" In *Unity and Struggle: Speeches and Writings* (New York: Monthly Review Press, 1979), 138 – 54, 140.

ومن الجدير بالذكر في السياق الحالي أن مقالة كابرال كانت في الأصل خطاباً ألقى تكريماً للدكتور إدواردو موندلاني، رئيس حركة التحرير الموزمبيقية (FRELIMO)، الذي اغتيل بطريقة جبانة في 3 شباط/ فبراير 1969 في دار السلام على يد المستعمرين البرتغاليين وحلفائهم (138). ويختتم كابرال بالقول إنه "إذا كان الاستعمار البرتغالي ووكلاء الإمبريالية لا يزالون قادرين على قتل رجل مثل الدكتور إدواردو موندلاني والإفلات من العقاب، فذلك لأن شيئاً فاسداً لا يزال يتعفن في قلب البشرية: [إنه] الهيمنة الإمبريالية. وذلك لأن رجال النوايا الحسنة، المدافعين عن ثقافة الشعوب، لم ينهوا بعد مهمتهم على هذا الكوكب." (154) إن اغتيال "إسرائيل" الدكتور رفعت العرعير، والإفلات من العقاب، يعني أن تلك المهمة لا تزال قائمة.

[39] Cabral, "National Culture," op. cit., 142.

[40] Ibid., 143.

[41] Frantz Fanon, "Concerning Violence" in *The Wretched of the Earth*, trans. Constance Farrington (New York: Grove, 1981), 51, 106 – 35 .

[42] Mahmoud Darwish, "A State of Siege" in *The Butterfly's Burden*, trans. Fady Joudah (Port Townsend: Copper Canyon, 2007), 119 – 73, 169.

[43] Alareer, *If I Must Die*, op. cit., 116.